رائد الشعر الإسلامي في اليمن

محمد محمود الزبيري

إن من أبده بدائه التاريخ اليمني المعاصر لمسار الشعر اليمني أن يكون صدّاحه الأول ورائده الأمثل هو المجاهد محمد محمود الزبيري المولود بصنعاء سنة ١٣٣٧هـ والمدفون بها بعد استشهاده سنة ١٣٨٥هـ. فمع أنه ولد في العام الذي توفي فيه والده، وكان من أبرز قضاة اليمن، ومع أنه لم يعش أكثر من ثمانية وأربعين عاماً إلا أن واعيته القوية أتاحت له حفظ القرآن الكريم بعدة قراءات وهو لم يبلغ العاشرة، ثم استيعاب ثقافة عصره ومصره من علوم لسانية وشرعية وأدبية واجتماعية، فكان على صغر سنه إماماً لمسجد التقوى بصنعاء يأسر القلوب بتلاوته، ويجتذب الصفوف بخطابته، ويبهر القراء بنثره، ويأسر العقول والعواطف بشاعريته التي قدر لباكورتها أن تتفجر في عصماء طويلة ألقاها بين يدي بطل الجزيرة وموحدها عبد العزيز آل سعود في منى سنة ١٣٥٧هـ حين كان مرافقاً للأمير اليمني الشهير علي عبد الله الوزير: (نور العروبة من جبينك يشرق).

بقلم: عبد الرحمن بعكر
اليمن

ويبدو أن تلك الباكورة وقد تناقلت الألسن أبياتها حتى وردت بها صنعاء أثارت حفيظة الإمام يحيى عليه إلى جانب موجدة الإمام من مرافقته الوزير المغاضب لدولة الإمام فلم يجد الفتى ابن العشرين ما يرضي به إمامه بعد عودته إلى صنعاء من دراسته في مصر إلا أن يشفعها بأخرى (نور الشريعة من جبينك يسطع)، وقد كان في كلتيهما صادقاً.

وكان قد التحق في مصر بدار العلوم، الدار التي أنجبت العلماء والنوابغ، وهناك كان سنة ١٩٤٠م في مقدمة العاملين لإنجاح أول اتحاد طلابي عربي، وقد أدهش الجمهور الذي كان في أغلبه لا يعرف عن اليمن إلا اسمه، حيث ألقى داليته الخالدة في دلتا مصر وفوق أبهاء القناطر الخيرية:

بشراك يا قلمي فهذا منهل صاف وأنت كما علمتك صاد

وكان في عداد الخوارق أن يجتمع لذلك الفتى اليمني اليتيم المجهود إشراق البيان وأصالة الجنان وهو يستعرض مواجع الواقع العربي في حكمة

الشيوخ واتزان العارفين بما يجري في الأعماق.

إن الضماد على فساد جراحنا ... أنكى لنا من خنجر الجلاد
ولكم نرى أدب الشباب مداجياً ... يبدو على خوف من الإرصاد
حلوا القيود عن الضمير فلم يكن ... مثوى الضمير الحي في الأقياد

وتتواصل في القاهرة أناشيده الوثابة إدانة لما يجري، وكان الوقت يومها غمار الحرب العالمية الثانية، والانتداب البريطاني يرتب تنفيذ خططه التآمرية مع صهيون ضد فلسطين، ويكون عجيباً على حد الإدهاش أن نسمع زبيري اليمن في نص شعري باكر كأنما وضع اليوم وولد اللحظة:

نزعتها عن شؤون ملؤها العبر ... وصغتها عن ضمير ملؤه الم
وللفؤاد أحاسيس إذا انبعثت ... جابت بها الأرض وانجالت بها الظلم
ما للحقائق أضحت لا كلاحظها ... عين ولا يأتلي عن سبقها الوهم
ما للدماء التي تجري بساحتنا ... هانت فما قام في إنصافنا حكم
إن الخداع الذي دانت سياستكم ... به لأعظم ما تشقى به الأمم
ظلمتم العرب للصهيون ويحكم ... أين الوفاء وأين العدل والشيم
أضحى اليهود صليباً تعبدون ... دون الصليب وإن كانوا العبيد هم
فلا برحتم عبيداً في اليهود ولا ... زالت سياستكم بالذل تنهدم

ورغم أن أكابر طباخي الثقافة والسياسة والاقتصاد في هذا الكوكب أصروا على أن يكون القرن العشرون هو قرن تفريغ ناشئة المسلمين، واستلاب هويتهم، فلا يغادر الدنيا حتى يكون الاحتواء والتشويه قد أتى على شباب الإسلام، فهم بين موقوذة ونطيحة ومتردية وما أكل السبع، وقد فتكت ببعضهم النظريات الفلسفية والأيديولوجيات الحزبية، فلا يمكن قيام أي إصلاح في المجتمع إلا من منطلق أيديولوجي وصراع طبقي، ففي غمرة ذلك الغليان المجلوب من خارج الساحة - وقد كان الزبيري وزملاؤه من كبار مصلحي الواقع اليمني من منطلق إسلامي - يعانون من صهير بوتقة فلك التحولات المفزعة، واستطاعوا أن يحتفظوا بموقفهم الرصين الجامع بين الأصالة والمعاصرة، فنسمع الزبيري وقد عاد من القاهرة يعرض على الإمام يحيى برنامجاً إصلاحياً أعده هو وزملاؤه، وفي مقدمتهم الأستاذ أحمد محمد نعمان، فأودعه الإمام السجن، وبعد ضراعة شعرية مذيبة واصلها الزبيري من السجن إلى قلب الإمام من مثل:

محمد محمود الزبيري

جفت مدامعنا ففاض شعورنا ... والشعر في بعض المواطن أدمع
هب لي بقية مهجة أحيا بها ... إني لأرضى بالحياة وأقنع

وأمكن تلك الضراعات المعززة باستعطافات من ولي العهد أحمد في تعز لأبيه بدافع من النعمان زميل الزبيري المقيم لديه أن تخرجه. من السجن

كان خروج الزبيري من السجن والاتجاه من صنعاء إلى تعز عرفاناً بجميل ولي العهد، ودفعاً به إلى إصلاح الأوضاع وتخفيف معاناة المدن والأرياف، ولكن مصاحبتهم له عدة شهور جعلتهم يوقنون أن إصرار الابن على تجميد الأوضاع القائمة لا يقل عن إصرار أبيه. هنالك اتجه الزبيري والنعمان وآخرون أرسالاً وخفية إلى عدن ميناء اليمن الأول الخاضع لسيطرة المستعمر الإنكليزي، حيث استقرت قناعات النخبة المصلحة على ما أسماه الزبيري في مقدمة ديوانه الثاني ثورة الشعر باليقين الثوري، ووقف وقد أصبح رئيس أول تجمع يمني لإصلاح أوضاع البلاد يعلن في عدن نشيده الثوري الأصيل سنة ١٩٤٤م:

سجل مكانك في التاريخ يا قلم — فهاهنا تبعث الأجيال والأمم
هنا البراكين هبت من مراقدها — تطغى وتلتهم الطاغي وتقتحم
لسنا الألى أيقظوها من مراقدها — الله أيقظها والسخط والألم

وهكذا فبعد سنوات أطيح بالإمام يحيى في ثورة شعبية قادها المتنورون من مثقفي الشعب علماء وأدباء ومعهم مشايخ القبائل وكبار الضباط وأحرار التجار، وما هي إلا أسابيع ثلاثة حتى انتكست الثورة، وألغي الدستور، وسيق العشرات من نخبة البلاد وزهرة رجالها إلى ساحات الإعدام والسجون، ونشر ولي العهد أحمد الذي صار إماماً بعد أبيه مناحات وفجائع جللت اليمن.

وكان من نصيب الزبيري في تلك الساعات المفزعة من فشل الثورة أن يكون مع أمين الجامعة العربية عبد الرحمن عزام ضيوفاً على الملك عبد العزيز آل سعود -رحمه الله - الذي سمح للزبيري بعد فشل الثورة والاعتراف بدولة الإمام أحمد أن يبحث لنفسه عن ملاذ، فأمكن له ركوب باخرة أجنبية متجهة من عدن إلى الهند.

وما كاد يصلها متخفياً خاوي اليد والجيب حتى كانت حكومة الهند قد تلقت من حكومة الإمام أحمد في اليمن قائمة سوداء بأسماء رجال الثورة الفاشلة، وفي مقدمتهم محمد محمود الزبيري الذي كان منصبه في وزارة الثورة هو وزارة المعارف، وكلما دخل مدينة باكستانية خائفاً يترقب من تلك القائمة أحسّ بالملاحقة فاندفع متوغلاً في الريف الباكستاني بعيداً عن عيون الدولة.

وفي كوخ حقير وهو الطائر الكسير جاءت ولادة شعرية لنص نادر في الشعر العربي كله يعرض تفاصيل لحظات الإشراق الفني ولندرتها في شعر أمتها، هذا أولاً. أما ثانياً فلقيمتها الشعورية والفنية الفذة نورد مطلعها:

أحس بريح كريح الجنان — تهب بأعماق روحي هبوبا
وأشعر أن القوافي تدب — كالنمل يملأ دماغي دبيبا

ويقول:

ومنها أصوغ حياة الشعوب — وأذكي على قاتليها الحروبا
ومنها أوزع للعالمين — طُهراً وأنشر في الأرض طيبا
ومنها أسود ومنها أجود — ومنها أقارع عني الخطوبا
ومنها أصور هذا الوجود — وأكشف منه البديع العجيبا
ومنها الشوارد مثل البروق — تحيي الموات وتروي الجديبا
إذا لمست مهجتي لمسة — توثب قلبي بصدري وثوبا
وأكثرها مفلت من يدي — يغيب ولا يشتهي أن يغيبا

• لا يعد الزبيري رائداً للشعر اليمني الحديث فحسب، بل أباً لحركة صناعة تاريخ ذلك الوطن عملاً وفكراً وشعراً.

ويقول:

حروف الدويّ بها نطفة — ترعرع بيتاً عريقاً نسيباً
يضمخه الجرح من مهجتي — ويخرجه من دماي خضيبا
وقافية تبتغي في البحور — دراً أصيلاً وحيداً جليبا

ويختمها قائلاً:

أحب القريض وأحيا به — مع الهول طفلاً ضحوكاً لعوبا
وروح الطفولة في نزعتي — وفني ستمنعني أن أشيبا
وأما البياض على مفرقي — فقد صار كالناس لوناً كذوبا
خذوا كل دنياكمُ واتركوا — فؤاديَ حراً وحيداً غريبا
فإني أضخمكم دولة — وإن خلتموني طريداً سليبا

ومع تراخي العهد أمكن للزبيري التعرف على شخصيات عربية في العاصمة الباكستانية، هم باقة عطرة من نبلاء العرب يأتي في مقدمتهم السفير الشامي والشاعر الإنسان عمر بهاء الدين الأميري، والسفير المصري الشاعر عبد الوهاب عزام، والسياسي الأردني اللامع عبد المنعم الرفاعي. وقد أمكن له معهم وبهم تنسم أنفاس الطمأنينة مضافاً إلى شخصيات باكستانية يأتي في مقدمتهم شيخ الإسلام في باكستان محمد شبير، وبتعاون الجميع أمكن للزبيري أن يلتحق بجامعة العباسية في لاهور مدرساً للأدب العربي، كما فتحت إذاعة باكستان أبوابها لأحاديثه النافعة والماتعة.

ولقد ربطت آصرة الدين والأدب بينه وبين ذلك الطراز النبيل من السفراء العرب، وكان من علاقته بالأميري أن يتلازما كالتوأم معجباً كلٌ منهما بشمائل الآخر. وهي زمالة استمرت حتى استشهاد الزبيري. وحين عاد عبد الوهاب عزام في إجازة إلى القاهرة ترك وراءه فراغاً احتملته تلك العصبة الأدبية في جوى ولوعة، وما إن عاد عزام إلى محل عمله في سفارة مصر بباكستان حيث كان

الزبيري يتلقاه برائعة شعرية لا تملك إن وقفت عليها أن تفارقها حتى تأتي على آخر أنفاسها، وحين نستعرض هذه الرائعة يأخذنا منها ويشدنا إليها بحر السريع الذي هو من أعذب بحور العروض وأحبها، فاكتمل لها مع شدة الانفعال تدافع البحر وجلال الموضوع ومواتاة اللغة وتجاوب الشعور، فكانت هذه الرائعة التي لا ننعتها بأفضل مما نعتها صاحبها:

عزام هذه زفرة أطلقت ... من لهب الروح ومن ذوبه
ثارت على صمتي وضاقت به ... وفجرت دمعي من غربه
في موكب اللقيا يذيع الهوى ... ويخرج المستور من حجبه
وينهل العاشق عن عقله ... ويكشف الهيمان عن قلبه

ثم يقول:

يا كرم النيل ويا جوده ... لكل قطر ضج من جدبه
بعثت أحلى جدول سلسل ... تذيق باكستان من عنبه
انهار بنجابٍ به تلتقي ... لقيا جوى وافى إلى حِبه
هش له تياره وازدهى ... زهو الثرى هش إلى سُحبه
فكل موج طامح شامخ ... كأنه الأهرام في عجبه

ثم تنتقل القصيدة إلى موضوعها المقصود وهو طرح الوضع الإسلامي القائم واستعراض مآسيه العديدة وأحزانه المريرة بحرفٍ يكاد يقطر دماً، وجرْسٍ ينفذ إلى القلب فيمزقه أسى ولوعة:

انظر إلى الإسلام ما باله ... أجمعت الدنيا على حربه
قاطعه حتى حواريُّه ... وأجفلوا عنه وعن قربه
علام هذا الخوف من نوره ... وفيم هذا الضيق من رحبه
سادت على الدنيا بسلطانه ... وراعت الأعداء من عضبه
وجاء عهد جاهل انطوى ... من مجده الماضي ومن غيبه
يأخذ عن أعدائه رأيه ... في سعيه الأعمى وفي دربه
ويقبل الزعم بأن الدواء ... في كفه يفضي إلى نحبه
يخجل من روح به أعرقتْ ... كأنما يخجل من ذنبه

إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل من تطواف الزبيري في كبريات عواصم الإسلام درساً تطبيقياً لتصحيح تصوراته عن مفاهيم أساسية كانت مغلوطة لديه ولدى جيله من مصلحي اليمن، فقد أفاد من بقائه قرابة خمس سنوات في باكستان من خلال مقروءاته الجديدة ومزاملاته الوثيقة لذلك الطراز النبيل من سفراء العرب واعتنائه الخاص بإبداعات شاعر الإسلام محمد إقبال خبرة ناضجة لحقيقة التعليم الغربي الذي أراد المستعمر من ورائه تشويه بل سلخ

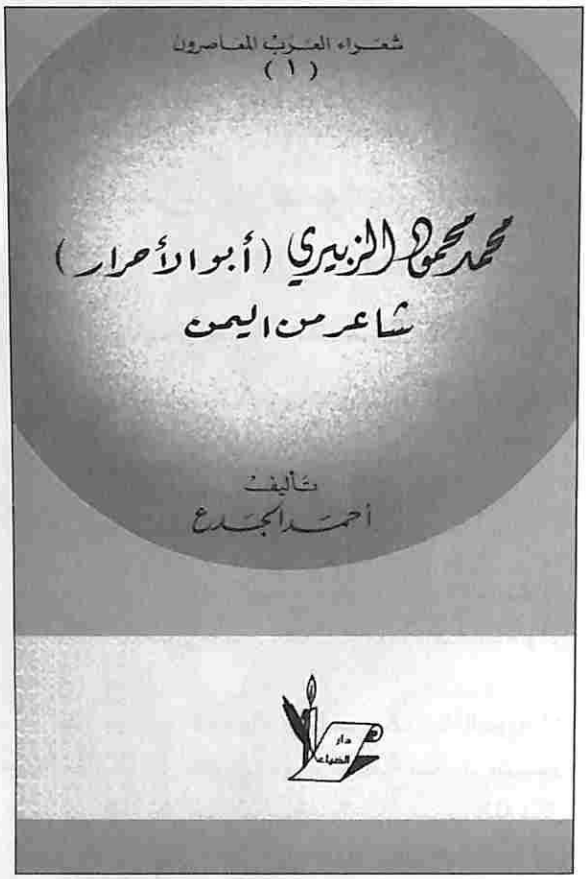

الجيل من جلد دينه وأمته. ولذلك رأينا الزبيري يجهد لتعريب كثير من النصوص الشعرية الإقبالية من مثل:

أيها الصقر ليس في طرفك اليوم ... طموح المحلق المتأله
ليس يدري جناحك السابح الجوال أن السماء مدت لأجله
أنت نجل الشاهين لكن عينيك ... تقولان أنت لست بنجله
لم نر البأس فيهما ورأينا ... كل فرع يحوي عناصر أصله

جأر الزبيري إلى مولاه سبحانه أن يجعل إنقاذ اليمن من ظالميه لا بسكتة قلبية تأتي من السماء ولا بنجدة أجنبية تأتي من الخارج وإنما بجهد يمني مقتحم.

وتفجرت ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م بأيدي ضباط الكلية الحربية بصنعاء من شباب اليمن، وأعلن اسم الزبيري في التشكيلة الأولى للوزارة وزيراً للتربية والتعليم، ومنذ اليوم الأول لوصوله اصطدم بالشباب الحزبي الذين عانى منهم طلاباً في القاهرة، وأطال الحديث عن متاعبهم التي ألحقوها به في رسالة طويلة إلى زميل نضاله الأستاذ أحمد محمد نعمان،

• أراد الله أن يجعل من تطواف الزبيري في كبريات عواصم العالم الإسلامي درساً تطبيقياً لتصحيح تصوراته عن مفاهيم أساسية كانت مغلوطة لديه.

غير أنه كان قد توقع التقاءه بهم، واصطراعه معهم في كتابه النثري الذي جعل عنوانه (مأساة واق الواق).

وكان من شواهد نقاء القصد وخيرية الطوية أن يكون آخر أعمال حادي الثورة اليمنية محمد محمود الزبيري هو تكليف نفسه بتكوين حزب الله لكل اليمنيين من منطلق قرآني محمدي، وكان إعلانه له من قمة برط الأشم في أقاصي مشارق اليمن في بلاد بكيل في يناير سنة ١٩٦٥م/ رمضان سنة ١٣٨٥هـ، وبينما كان يعد العدة للتوجه نحو الحرمين لأداء الحج والالتقاء بزميل عمره المرحوم عمر بهاء الدين الأميري الساعي لالتقائه بذوي الشأن في المملكة العربية السعودية إيقافاً لهم على حقيقة الواقع اليمني، وحرصاً على وقف النزيف المتصاعد على الساحة اليمنية، وبعد أدائه فريضة العصر جماعة بمسجد أرجوزة في (برط) أصابت قلبه الطاهر رصاصات مرتزق، وقد أوضح الأستاذ عبد الملك الطيب ذلك في كتابيه (التاريخ يتكلم)، و(الثورة في نفق أسود) الجهة الممولة لعملية الاغتيال، وهكذا ارتفعت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية إن شاء الله.

ترك الزبيري وراءه ثلاثة دواوين شعرية، وأبحاثاً نثرية تتناول القضية اليمنية. وكان من أفضال المولى سبحانه على صاحب هذه الأسطر أن يلتقي ذلك العمود الفجري التقاءً أمتع الحواس الخمس، وأنعش كل الأشواق الروحية مرةً في (حيس) وهو يبحث رغم إجهاده من سفر طويل، عما إذا كان والده ظلم مواطناً حين كان أول قاض للإمام في (حيس).

أما اللقاء الثاني فكان أمام منزل المشير السلال، وسألني أخ شامي فاضل: ما الذي جعلني أضع دراسة موسعة عن الزبيري بعد أن كانت قرابة عشر دراسات عنه قد صدرت؟ فأوضحت له البواعث، وفي مقدمتها أن أكثر من كتبوا عنه كانوا يحرصون على تصنيفه تصنيفاً حزبياً مكذوباً، فهذا يعرضه ثائراً أحمر، وذاك يصوره مناضلاً أصفر، وآخر يريده قزَحياً بكل ألوان الطيف، ذلك أولاً. أما ثانياً فإن جلّ من كتبوا عنه تجاهلوا مرحلته الباكستانية فراراً من إنتاجه الإسلامي الشامخ هناك. ثالثاً: يكاد جميعهم أن يتهربوا من موقفه الجلي القوي بعد عودته إلى صنعاء مطلع الثورة السبتمبرية حتى الاستشهاد قد استوفيت - والحمد لله كل ذلك - في دراسة عنه واعية مستوعبة جمعت اعتناءً بكل أطوار حياته وألوان إبداعه من نثر وشعر وخطابة، إلى جانب التنويه الدارس لتجربته الرائدة في تحقيق الإسلام عن طريق المؤتمرات الشعبية النابعة بحق من صميم الذاتية اليمنية المؤمنة، كما أوردت قصيدته السبتمبرية الوحيدة والشجاعة المقتحمة، ولقد لقيت من إقبال القراء ما جعلني أعيد طباعتها مرتين. ■

شقائق الصورة

غالية خوجه
سوريا

كلماتي ،
لاتحلق إلاّ في فضاء طاهر، تعرف زرقته السماءُ
والنار..
ذات يوم مضى،
أو .. يأتي .. ،
أو سيأتي،
طارد الخنزير البريّ كلماتي
منذ ذبحها،
ودماء المعاني،
شقائق نعمان